

الله: « هلا شققت قلبه فنظرت أصادق هو أم كاذب »<sup>(١)</sup> على ما رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وغيرهم .

وقال فى شرح المقاصد : الإقرار إذا جعل شرط إجراء الأحكام لابد أن يكون على وجه الإعلان على الإمام وغيره من أهل الإسلام ، بخلاف ما إذا جعل ركناً له فإنه يكفى له مجرد التكلم مرة وإن لم يظهر لغيره ، والظاهر أن التزام الشرعيات يقوم مقام ذلك الإعلان ، كما لا يخفى على الأعيان ، ثم الإجماع منعقد على إيمان من صدق بقلبه ، وقصد الإقرار بلسانه ، ومنعه مانع من خرس ونحوه ، فظهر أن حقيقة الإيمان ليست مجرد كلمتى الشهادة على ما زعمت الكرامية .

الإيمان لا يزيد ولا ينقص :

وإيمان أهل السماء أى من الملائكة وأهل الجنة والأرض أى من الأنبياء والأولياء ، وسائر المؤمنين من الأبرار والفجار لا يزيد ولا ينقص أى من جهة المؤمن به نفسه ، لأن التصديق إذا لم يكن على وجه التحقيق يكون فى مرتبة الظن والترديد ، والظن غير مفيد فى مقام الاعتقاد عند أرباب التأيد ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [يونس: ٣٦] فالتحقيق : أن الإيمان كما قال الإمام الرازى لا يقبل الزيادة والنقصان من حيثية أصل التصديق لا من جهة اليقين ، فإن مراتب أهلها مختلفة فى كمال الدين ، كما أشار إليه سبحانه بقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمَنَ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة: ٢٦٠] فإن مرتبة عين اليقين فوق مرتبة علم اليقين ، وكذا ورد : « ليس

(١) صحيح : أخرجه ابن أبى شيبه (١٤ / ٣٤١) وأبو عوانة فى صحيحه (١ / ٦٨) والطبرانى فى الكبير (٢ / ١٩٠) والطحاوى فى مشكل الآثار (٤ / ٢٥٢) .

الخبر كالمعاينة» (١) وإن قال بعضهم : لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً ، يعنى أصل اليقين لمطابقة علم اليقين فى ذلك الحين ، وهو لا ينافى زيادة اليقين عند الرؤية ، كما هو مشاهد لمن له علم بالكعبة فى الغيبة ثم حصل له المشاهدة فى عالم الحضرة ، وعلى هذا فالمراد بالزيادة والنقصان القوة والضعف ، فإن التصديق بطلوع الشمس أقوى من التصديق بحدوث العالم وإن كانا متساويين فى أصل تصديق المؤمن به ، ونحن نعلم قطعاً أن إيمان آحاد الأمة ليس كإيمان النبى عليه الصلاة والسلام ، ولا كإيمان الصديق باعتبار هذا التحقيق ، وهذا معنى ما ورد : « لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان جميع المؤمنين لرجح إيمانه » (٢) يعنى لرجحان إيقانه، ووقار جنانه ، وثبات إتقانه ، وتحقيق عرفانه ، ولا من جهة ثمرات الإيمان من زيادات الإحسان، لتفاوت أفراد الإنسان من أهل الإيمان فى كثرة الطاعات وقلة العصيان ، وعكسه فى مرتبة النقصان مع بقاء أصل وصف الإيمان فى حق كل منهما بنعت الإيقان ، فالخلاف لفظى بين أرباب العرفان .

ومن هنا قال الإمام محمد على ما ذكره فى « الخلاصة » عنه : أكره أن يقول : إيمانى كإيمان جبرائيل ولكن يقول : آمنت بما آمن به جبرائيل ، انتهى . وذلك أن الأول يوهم أن إيمانه كإيمان جبرائيل من جميع الوجوه ، وليس الأمر كذلك كما هو الفرق البين بينهما هنالك . وقال فى الوصية : ثم الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، لأنه لا يتصور زيادة الإيمان إلا بنقصان الكفر ، ولا يتصور نقصان الإيمان إلا بزيادة الكفر ، فكيف يجوز أن يكون الشخص الواحد فى حالة واحدة مؤمناً وكافراً وليس فى إيمان المؤمن شك ، كما أنه ليس فى كفر الكافر شك ، لقوله

(١) صحيح : سبق تخريجه .

(٢) صحيح : أخرجه إسحاق بن راهويه فى مسنده والبيهقى فى الشعب كما فى كشف الخفاء

للعجلونى (٢/ ١٤٩) وابن عدى فى الكامل (٤/ ١٥١٨) والشوكانى فى الفوائد

تعالى : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال: ٤٤] أى فى موضع ، و ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴾ [النساء: ١٥١] أى فى محل آخر ، والعاصون من أمة محمد ﷺ مؤمنون حقًا وليسوا بكافرين أى حقًا ، انتهى . فأشار الإمام بهذا الكلام إلى أن العصيان لا ينافى الإيمان كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، خلافاً للخوارج والمعتزلة فإنهما عندهم لا يجتمعان ، ونحن نحمل هذا الحال على مقام الكمال ، فإن نفى المعصية بالكلية من المؤمن كالمحال وأما نحو قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تَلَّيْتْ عَلَيْهِمْ آيَاتَهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [الأنفال: ٢] فمعناه إيقاناً ، أو مؤول بأن المراد زيادة الإيمان بزيادة نزول المؤمن به فى آى القرآن ، وأما قوله ﷺ لما سئل أن الإيمان يزيد وينقص : « نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخل صاحبه النار » فمعناه أنه يزيد باعتباره أعماله الحسنة حتى يدخل صاحبه الجنة دخولاً أولاً ، وينقص بارتكاب أعماله السيئة حتى يدخل صاحبه النار أولاً ، ثم يدخل الجنة بإيمانه آخرًا ، كما هو مقتضى مذهب أهل السنة ، على أن التصديق من الكيفيات النفسية للإنسان ، وهى تقبل الزيادة والنقصان باعتبار القوة والضعف فى مراتب الإيقان ، ثم الطاعة والعبادة ثمرة الإيمان ، ونتيجة الإيقان ، وتنور القلب بنور العرفان بخلاف المعصية ، فإنها تسود القلب ، وتضعف محبة الرب ، وربما يجره مداومة العصيان إلى ظلمات الكفران ، فإن الصغيرة تجر إلى الكبيرة ، والكبيرة إلى الكفر ، فنسأل الله العافية وحسن الخاتمة .

المؤمنون مستوون فى الإيمان متفاضلون فى الأعمال :

والمؤمنون مستوون أى متساوون فى الإيمان أى فى أصله والتوحيد أى فى نفسه ، وإنما قيدنا بهما فإن الكفر مع الإيمان كالعشى مع البصر ، ولا شك أن البصراء يختلفون فى قوة البصر وضعفه فمنهم الأعمى والأعشى ، ومن يرى الخط الثخين دون الرقيق إلا بزجاجة ونحوها ، ومن يرى عن قرب زائد على

العادة وآخر بضده .

ومن هنا قال محمد على ما تقدم : أكره أن يقول : إيماني كإيمان جبرائيل بل يقول : آمنت بما آمن به جبرائيل انتهى . وكذا لا يجوز أن يقول أحد : إيماني كإيمان الأنبياء بل ولا ينبغي أن يقول : إيماني كإيمان أبي بكر وعمر وأمثالهما ، فإن تفاوت نور كلمة التوحيد في قلوب أهلها لا يحصيه إلا الله سبحانه ، فمن الناس من نورها في قلبه كالشمس ، ومنهم كالقمر ، ومنهم كالكوكب الدرّي ، ومنهم كالشعل العظيم ، وآخر كالسراج الضعيف ، لقوله عليه الصلاة والسلام : «وذلك أضعف الإيمان» وقوله عليه الصلاة والسلام : «المؤمن القوى أحب إلى الله من المؤمن الضعيف»<sup>(١)</sup> والقوة تشمل القوة الظاهرية العملية والقوة الباطنية العلمية ، وعلى منوال هذه الأنوار في الدنيا تظهر أنوار علومهم وأعمالهم وأحوالهم في العقبى ، وكلما اشتد نور هذه الكلمة وعظمت مرتبتها أحرقت من الشبهات والشهوات بحسب قوتها ، بحيث ربما وصل إلى حال لا يصادف شبهة ولا شهوة ، ولا ذنباً ولا سيئة إلا أحرقتها ، بل «تقول النار : جزيا مؤمن فإن نورك أطفأ لهبي» ومن عرف هذا عرف معنى قوله : «إن الله تعالى حرم على النار من قال : لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله» وقوله : «لا يدخل النار من قال : لا إله إلا الله»<sup>(٢)</sup> وأمثال ذلك مما أشكلت على كثير من الناس ، حتى ظنّها بعضهم منسوخة وظنّها بعضهم قبل ورود الأوامر والنواهي ، وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار ، وأولّ بعضهم الدخول بالخلود ، فإن الشارع لم يجعل

(١) صحيح : أخرجه مسلم في القدر (٣٤) وابن ماجه (٧٩ ، ٤١٦٨) وأحمد في مسنده

(٢/ ٣٧٠) والحميدى في مسنده (١١١٤) والبيهقى في الكبرى (١٠ / ٨٩) .

(٢) صحيح : أخرجه أبو داود في اللباس باب (٢٩) والترمذى (١٩٩٨ ، ١٩٩٩) وابن ماجه

(٥٩ ، ٤١٧٣) وأحمد في المسند (١ / ٣٩٩) والشجرى في أماليه (٢ / ٢١٧) والطبرانى

في الكبير (١٠ / ٩٢) بلفظ : «لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان» .

ذلك حاصلًا بمجرد قول اللسان فقط ، وتأمل حديث البطاقة فإن من المعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة ، وكثير منهم يدخل النار .

متفاضلون في الأعمال أى باختلاف الأحوال . قال في « الوصية » : ثم العمل غير الإيمان ، والإيمان غير العمل ، بدليل أن كثيرًا من الأوقات يرتفع العمل من المؤمن ، ولا يجوز أن يقال : يرتفع عنه الإيمان ، فإن الحاض ترتفع عنها الصلاة ولا يجوز أن يقال : رُفِعَ عنها الإيمان ، أو أمر لها بترك الإيمان ، وقد قال لها الشارع : دعى الصوم ثم افضيه ، ولا يصح أن يقال : دعى الإيمان ثم افضيه ، ويجوز أن يقال : ليس على الفقير زكاة ، ولا يجوز أن يقال : ليس على الفقير الإيمان ، انتهى .

وحاصله أن العمل مغاير للإيمان عند أهل السنة لا أنه جزء منه ، وركن له من الأركان ، كما يقوله المعتزلة لما يدل عليه العطف الذى هو فى الأصل للمغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه ، حيث جاء فى القرآن من نحو قوله تعالى : ﴿ آمَنُوا وَعَمِلُوا ﴾ [البقرة: ٢٥] .

معنى الإسلام ونسبته إلى الإيمان :

والإسلام هو التسليم أى : باطنًا والانقياد لأوامر الله تعالى أى : ظاهرًا ففى طريق اللغة فى نسخة « فمن طريق اللغة » فرق بين الإيمان والإسلام فإن فى الإيمان فى اللغة هو التصديق كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا ﴾ [يوسف: ١٧] والإسلام مطلق الانقياد، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ ﴾ [آل عمران: ٨٣] أى انقاد ﴿ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا ﴾ [آل عمران: ٨٣] أى الملائكة والمسلمون ﴿ وَكَرَّهًا ﴾ [آل عمران: ٨٣] أى : الكفرة حين البأس ، فالإيمان مختص بالانقياد الباطنى ، والإسلام مختص بالانقياد الظاهرى كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤]

وكما يدل عليه حديث جبرائيل حيث فرق بين الإيمان والإسلام بأن جعل الإيمان محض التصديق، والإسلام هو القيام بالإقرار وعمل الأبرار في مقام التوفيق ولكن لا يكون أى لا يوجد فى اعتبار الشريعة إيمان بلا إسلام أى : انقياد باطنى بلا انقياد ظاهرى ، كما كان لأهل الكتاب ، وكما وجد لأبى طالب حال الخطاب ٤ ، وكما صدر لإبليس حال العتاب ، فلا بد من جمعها فى صوب الصواب ولا إسلام بلا إيمان تأكيد لما قبله ، وإشارة إلى أنه يستوى تقدم الإسلام على تحقق الإيمان وعكسه فى مقام الإيقان ، إذ ربما يتقدم التصديق الباطنى ، ويتأخر الانقياد الظاهرى كمؤمنى أهل الكتاب ، وربما يتقدم الإسلام ظاهراً ، ثم يوجد التصديق باطنياً ، كما وقع لبعض المنافقين حيث سلكوا فى الآخر طريق المؤمنين ، ولعل هذا وجه الحكمة فى قضية المؤلفه فهما أى الإسلام والإيمان كشىء واحد حيث لا ينفكان كالظهر مع البطن أى للإنسان، فإنه لا يتحقق وجود أحدهما بدون الآخر، وهذا تمثيل للمعقول بالمحسوس ، فتدبر ، وقد ورد الإسلام علانية والإيمان سرّاً ، أى مبنى على نية ، والحاصل أن الإيمان محله القلب ، والإسلام موضعه القلب، والجسد الكامل منهما يتركب .

والدين اسم واقع على الإيمان والإسلام والشرائع كلها أى الأحكام جميعها ، والمعنى أن الدين إذا أطلق ، فالمراد به التصديق والإقرار ، وقبول الأحكام للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما يستفاد من قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: ١٩] و ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨] و ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] وليس مراد الإمام أن الدين يطلق على كل واحد من الإيمان والإسلام والشرائع بانفرادها ، كما توهم شارح فى هذا المقام ، لأنه خارج عن نظام المرام . وفى « عقيدة الطحاوى » : « ودين الله فى الأرض والسماء واحد ، وهو بين الغلو

والتقصير ، وبين التشبيه والتعطيل ، وبين الجبر والقدر ، وبين الأمن واليأس ،  
 وفى الصحيح عن أبى هريرة مرفوعاً : « إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ دِينَنَا وَاحِدٌ » <sup>(١)</sup> يعنى  
 أصله ، وهو التوحيد وما يتعلق به ، لكن الشرائع متنوعة لقوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ  
 جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨] .

نعرف الله تعالى كما وصف نفسه :

نعرف الله تعالى حق معرفته أى لا باعتبار كنه ذاته ، وإحاطة صفاته ، بل  
 بحسب مقدور العبد وطاقته فى جميع حالاته كما وصف أى الله سبحانه نفسه أى  
 ذاته ، وفيه دليل على جواز إطلاق النفس على ذاته تعالى ، وأما إطلاق الذات  
 فأكثر العلماء فى العبارات جمعاً بين الذات والصفات ، وقد ورد : « تفكروا فى  
 كل شىء ولا تفكروا فى ذات الله » <sup>(٢)</sup> وأما ما ذكره السيوطى من أنه قد ورد  
 إطلاق الذات عليه سبحانه فى « البخارى » فى قصة خبيب ، وهو قوله : وذلك  
 فى ذات الإله . ففيه بحث سن وجهين : أما أولاً فلأنه كلام صحابى ، وأما ثانياً  
 فلأنه ليس نصاً فى المدعى بل الظاهر أنه أراد فى سبيل الله ، وذلك لأن الكفار لما  
 خرجوا به من الحرم ليقتلوه ، قال : دعونى أصلى ركعتين ثم أنشأ يقول : [ بحر  
 الطويل ]

فلستُ أبالى حين أُقتلُ مسلماً على أى شقِّ كانَ فى اللهِ مصرعى

وذلكَ فى ذاتِ الإلهِ وإنْ يشأَ يباركُ على أوصالِ شلوٍ ممزجٍ

(١) لم أقف عليه .

(٢) حسن : أخرجه أبو نعيم فى الحلية وابن أبى شيبه والأصبهاني فى ترغيبه والبيهقى فى  
 الشعب والطبرانى فى الأوسط كما فى كشف الخفاء (١/ ٢٧٨) وطرقه تقوى بعضها  
 بعضاً وقال العجلونى : وأسانيدها ضعيفة لكن اجتماعها يكسبه قوة ومعناه صحيح وفى  
 صحيح مسلم عن أبى هريرة رفعه : « لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال : هذا خلقُ  
 الله . . » الحديث .